صور من القاهرة المجهولة

فى حمام السوق

بقلم الأستاذ م . محمد عبد الكريم

وبيت كأحشاء المحب دخلته ... ومالى ثياب فيه غير إهابى
أرى مُحرِما فيه وليس بكعبة ... فما ساغ إلا فيه خلع ثيابى
يثير ضبابا بالبخار مجندلا ... بدور زجاج فى سماء قباب
توهمت فيه قطعة من جهنم ... ولكنها من غير مس عقاب

اى والله :

وسع برحته أبا طالب المأمونى إذ أجمل فى بيتيه أبلغ ما يوصف به حمام السوق. و إذا كان شاعر اليتيمية قد دخل الحمام طائعا مختارا فما قصده الكاتب الا لزاما واضطرارا .

و بعد : فقد وعدت القارئ فى معرض الكلام عن المستوقد أن أجلوله أمر الحمام ولم يكن من الميسور أن أدخل حمام السوق ، وأتنقل بين مغاطسه وخلواته دون أن أخلع نعلى وأتجرد عن ثيابى لأتدثر بدثار رواده ، لذلك وجدت فى دراسة الحمام صعوبة لم يهوّنها سوى صديق الأستاذ بهاء الذى أبى إلا أن يشاطر أخاه ما يلقاه من مشقة وعناء .

فى البريمو يا ولد !

بهذا نادى معلم حمام الأربعاء غلامه حين ناولته قطعتين من ذوات العشرة قروش أجرا لدخولى وصاحبى إلى الحمام .

وسارع الغلام إلى قصبة طويلة صوبها نحو حبل عال معلق فى ردهة الحمام الخارجية وأنزل الينا أربعة دثر " بشاكير " قيل إنها غسلت ونظفت ، ومد المعلم يده تحت أريكته وأخرج (قبقابين) كبيرين حملهما الغلام مع الدثر وسار بنا إلى داخل الحمام .

ودخلنا فى ردهة فسيحة ملأ البخار أرجاءها حتى كاد يحجب كل ما فيها ، ثم عرجنا على غرفة مرتفعة امامها الخلوة وتركنا الرائد هناك نخلعنا ملابسنا ونتدثرنا بالدثر .

وكم أثار ضحكى مشهد بهاء أو المهاتما بهاء كما كنت أناديه . فقد بدا كزعيم الهند فى جسمه الناحل ملتفا بإزاره الأبيض الفضفاض، وهو ينظر من خلف منظاره يمنة ويسرة لا يعلم أين ولا كيف يسير .

واعمرى كيف يقوى على السير وقد حمله صاحب الحمام قبقابا لو شد إلى قدمى سجين لأمن حارسه فراره . على أن صاحبنا غالب قيده وسار يتعثر فيما حمل إلى المغطس .

فى المغطس :

وارتقينا ثلاث درجات عاليات فإذا بنا أمام حوض كبير يتسع لعشرين رجلا ، يحوطه إطار من الحجر المزخرف، ويتساقط الماء فى الحوض من بفوة بالسقف تتصل بخزان المستوقد الذى يسخن بما يحرق هناك من القمامة .

وبالحمام مغطسان أحدهما فاتر والآخر ساخن . وبكل منهما بالوعة صغيرة تصرف الماء تدريجيا بنسبة ما ينصب فى المغطسين من الماء النظيف .

وانتحيت وصاحبى ركنا من أركان حجرة المغطس ومضينا نتحدث إلى المستحمين ونستمع لما يقولون وكلهم من طبقة العمال والباعة ممن أقفرت بيوتهم من الماء الجارى فأتوا يطلبون النظافة فى حمام السوق .

مسامرات :

والحمام خلية النحل يدوى بطنين من فيه . وهو مجتمع يجد فيه الباحث مجالا لدراسة الطبقة الغالبة من أبناء البلد ولتعرف شؤونهم وأحوالهم . هذا نجار يشكو لصاحبه الحرب وما نجم عنها من غلاء ثمن الخشب وكساد الصناعة، وذاك من أرباب الكيف وهواة الجوزة يتدخل بين المتحدثين ليبين لهما أن غلاء الخشب لا يقاس بجانب شح الوارد من الحشيش وندرة الصنف الجيد اليوم .

وهذان شابان مشتبكان «فى قافية» يملآن الحمام ضحكا وسرورا .

وفى هذا الجو الغريب الذى يحكى ما يصوره صاحب ألف ليلة، يقف صبى الحمام يحيى الرواد شاديا بصوت رنان :

حمام نعيم والمنا مكتوب لكم يا رجال
يا حاضرين كلكم زدتوا المكان ده جمال
حمامنا من أنسكم هايص ومتجلى
والميه راقت بكم . . . يا رايقين البال

وبغتة صاح أحد "رايق البال": هدومى ، ضاعت هدومى . ومضى الصبى وعاد بالمعلم وشغل الجميع بالأمر . أما نحن فسارعنا بدورنا الى الخلوة نتفقد ملابسنا حتى إذا وجدناها لبسناها ويممنا شطر الاستراحة .

وحانت منى التفاتة الى النافورة فاذا بى أشاهد رجلا بدينا جاثما على مستحم ممدد، وقد أعمل فى إهابه بقفاز صوفى حتى كاد يدميه، ولم يكن صاحبنا سوى المكيساتى الذى يتولى تدليك المستحم وتنظيف بشرته .

وفى الاستراحة أو فى الإيوان كما يسمونه يجد الزائر المستحمين رقودا على أرائك عالية حيث يقوم أحد خدم الحمام بعملية التكييس .

والتكييس (بالباء) هو تدليك الأعضاء وضغط المفاصل والأطراف .

وأقبل معلم الحمام بعد أن فرغ من مشكلة الملابس المفقودة وجلس يتحدث الينا ويبثنا شكواه مما يلقاه من شح فى الرزق وقيود من تعليمات الحكومة .

الحمام بين الأمس واليوم :

إن حمام السوق الذى نعرض له فى هذا المقال هو أثر من الآثار القليلة الباقية من تراث السالفين . نقله الرومان الى هذه البلاد وغرسوا فيها نواته ، فلما دالت دولتهم وآل للعرب ملكهم عمم هؤلاء الحمامات فى مصر وفى غير مصر ، وكان للدين الاسلامى الذى يفرض الغسل ويأمر بالطهارة وبالنظافة أثر كبير فى ذلك .

وقد بدأت العناية بالحمام فى عهد الأمويين ، وبلغت عند الفاطميين شأوا لم يخفضه سوى الحاكم بأمر الله الذى أوصد أبواب أكثرها ومنع النساء من غشيانها .

وظل الحمام محتفظا بأهميته فى بلادنا الى عهد قريب ، فكان مقصد الناس أغنياء وفقراء ، ولم يغفل نصيب المرأة فيه فخصص للنساء يوم فى كل أسبوع واعتبر هذا اليوم عنوانا لكل حمام ، فيقال حمام الأحد إذا كان اليوم المخصص للنساء هو الأحد ، وقد جرت العادة أن يعلق على الحمام فى ذلك اليوم منديل أحمر حتى لا يخطئه الرجال ، والويل لمن يضله سوء طالعه منهم فيدخل الحمام حينذاك إذ يقابل ممن فيه مقابلة دونها لقاء زبانية الجحيم .

وتحجز الموسرات من مرتادات الحمام خلوات خاصة بهن ، وقد يحدث أن تستأجر إحداهن الحمام كله يوما كاملا لتدخل فيه معها من تشاء .

وقد كان الحمام ولا زال مقرا لبعض حفلات الإعداد للزفاف ، ففى يوم الحنة يستأجر أهل العروس الحمام كله أو خلوة منه وهناك تقوم "البلانة" أو "الماشطة" بتزيين العروس وتمشيطها بعد استحمامها ثم تخرج بين زغاريد المدعوات بعد أن تجمع البلانه منهن النقطة .

وقد تصحب العوالم العروس فى استحمامها فينتظمن حول النافورة و يضفين على الحفل من غنائهن وطبلهن بهجة و بهاء .

أثر المدنية فى حاضر الحمام :

وكان طبيعيا أن يقاسى الحمام كغيره من المنشآت القديمة من أثر المدنية محنة تضعف من شأنه حتى تكاد اليوم أن تودى به ، فمنذ أدخل الماء الجارى فى البيوت وأعدت المنازل بنظامها الحاضر الذى هيأ لكل مسكن حماما خاصا قل الاقبال على الحمامات وأصبحت وقفا على الفقراء بعد أن كان الكثيرون من روادها من ذوى اليسار .

وقد حال هذا الكساد دون إنشاء حمامات جديدة ، وزال الكثير من الحمامات القديمة إما لتداعى بنيانها أو بسبب ما اقتضاه التنظيم . على أن الحمامات لازال الكثير منها قائما فى المدن الكبيرة كالاسكندرية وطنطا والزقازيق وغيرها . أما القاهرة ففيها ما يقرب من الثلاثين حماما منتشرة فى الأحياء الوطنية كبولاق والسيدة زينب وحى الحسين و باب الشعرية والدرب الأحمر .

الحمام فى قيود الحكومة :

قضى النظام الصحى أن توضع الحمامات تحت رقابة خاصة ، فالترخيص بإدارة الحمام لا يصدر إلا بعد المعاينة والتحقق من استيفاء الشروط الصحية ، على أن أقسى هذه الشروط وأشدها ما قضى فيه باستعمال الماء المكرر .

فقد كان الماء المستخدم فيها الى عهد قريب يؤخذ من الآبار بواسطة السواقى أو بالمضخات ، فلما قضى بردم الآبار الزم أصحاب الحمامات باستعمال الماء المكرر وحده .

يقول أصحاب الحمامات إن وزارة الصحة غير محقة فى فرض هذا القيد ، بدعوى أنها قضت بردم جميع الآبار فى الحمامات وفى البيوت وليس من المعقول أن تكون كل مياه آبار العاصمة ملوثة ، وإنه إذا جاز أن يكون السبب فى ردم غير الملوث منها تجنب توالد البعوض فقد كان من الواجب فى هذه الحالة السماح باقامة المضخات على الآبار بعد ردمها .

وسواء أصح ما يدعيه هؤلاء أم لم يصح فما لامراء فيه أن فرض هذا القيد يحمل أصحاب الحمامات مصاريف كبيرة ، وخاصة اذا ذكرنا أن المغاطس والخلوات والنافورات تستنزف كل يوم مئات من الأمتار المكعبة من الماء فى كل حمام فى وقت قل فيه الإقبال على الحمام وكسد سوقه .

علاج غير ناجع :

وقد استجار أصحاب الحمامات فى العاصمة بالحكومة فأجارتهم من رمضائهم بنار . ذلك بأنها بعد أن توسطت لدى شركة المياه وحملتها على تخفيض سعر الماء من أربعة عشر

مليما ونصف للتر إلى اثنى عشر، عمدت إلى فرض نظام غريب لقاء هذا السعى هو إلزام أصحاب الحمامات بقبول الفقراء مجانا بحماماتهم ، وإذا لاحظنا أن كل رواد الحمامات العامة اليوم هم الفقراء أدركنا فداحة هذا القيد وشدته على أصحاب هذه الصناعة .

وإلزام أصحاب الأعمال بخدمة الفقراء بغير أجر هو اتجاه حميد كان يقابل بالثناء لو أنه فرض على طائفة وافرة الربح كالأطباء مثلا، ولكن فرضه على محترفى هذه الصناعة المحتضرة أمر يأباه العدل ولا يقره المنطق السليم .

ومما يدعو الى الأسف حقا أن الحكومة رغم تحميلها أصحاب الحمامات هـــذا العبء لم تصب الهدف الذى ترمى اليه من مساعدة الفقراء ،ذلك بأنها أعدت لهؤلاء بطاقات توزعها عليهم بواسطة مشايخ الحارات و بإشراف أقسام البوليس . ومما لاشك فيه أن شيخ الحارة يجد فى هذه البطاقات موردا جديدا للكسب فهو قلما يسلم إحداها الى فقير قبل أن ينال منه "المعلوم".

الحمـام كمؤسسة نافعة :

من الإسراف أن نشير بالغاء الحمامات رغم ما بها من نقص، فالحمامات العامة مؤسسات ناضة وهى تقوم فى أحياء فقيرة فتؤدى لأهليها خدمة كبيرة الأثر .

وحمامنا العربى أو التركى كما يسمونه عادة يقوم على نظم بعضها مأخوذ عن الحمام الهندى كالتكييس والتكبيس و بعضها عن الحمام الرومانى والبيزنطى كالمغاطس والخلوات والردهات ذوات النافورات .

أما التكييس أو التدليك فهو (مساج-Massage) صحى منشط للدورة الدموية، وهو خير وسيلة لتنظيف المعدة وفتح مسامها و إزالة النفايات الضارة من تحت سطح الجلد .

وأما التكبيس وهو ضغط المفاصل والأعضاء فهو عملية صحية تقوم مقام الرياضة العضلية لمن لايقوى على مزاولتها .

والمغطس الساخن عظيم الفائدة، فهو كما يقول صاحب دائرة المعارف العربية "يمد الجسم بحرارة هينة تمتد إلى الاحشاء فتنتشر سوائل الجسم و يشتد الامتصاص الجلدى والافراز الكلوى فتهدأ الأعضاء المتعبة وتستريح ، وهو يفيـد أصحاب الأمزجة الحادة القابلين للتهيج وكذلك الشيوخ والأولاد والنساء عامة وخاصة الحوامل والمرضعات" .

والحمام التركى يعرفه الأربيون و يقـدرون فوائده . وهو منتشر فى أكثر مدن أوربا الشرقية كصوفيا وسيراجيفو و بخارست كما أن كثيرا من حمامات أوربا الغربيـة كحمام جتنر فى درسدن والحمام البلدى فى هانوفر وحمام كارل مولر فى ميونخ وحمامات باكر فى بودابست متأثرة فى نظمها بالحمام التركى .

أوجه النقص :

إن شر مايتعرض له المستحم فى الحمامات العامة هو العدوى ، ومصدرها :

(أولا) كيس الشعر الذى تجرى به عملية التدليك وهو يمر على أجسام كل المستحمين وقد لايخلو أحدهم من مرض جلدى ينقل لغيره .

(ثانيا) البشاكير كما أن الوسائد والفرش التى يضطجع عليها المستحمون خالية فى أغلب الأحيان من الأغطية التى يمكن رفعها وغسلها .

(ثالثا) مياه الأحواض (المغاطس) وهى لاتتصرف التصريف الكفيل بتجديدها وذلك بسبب حرص أصحاب الحمامات على عدم زيادة المستهلك منها .

(رابعا) تهوية الحمامات غير الكافية ، وقد عمد أصحابها إلى إحكام إغلاق نوافذها لتحتفظ بحرارتها غير ناظرين إلى مايسببه فساد الهواء من ضرر بصحة المستحمين بها .

سبل إصلاح الحمام :

(الأول) أن يباح استخراج الماء من باطن الأرض بالمضخات لتغذية الحمامات بالماء مالم يثبت التحليل الكيمائى الذى يعمل لكل حالة أن الماء ملوث وهنا يلزم صاحب الحمام باستعمال الماء المكرر وحده .

(الثانى) أن يرفع القيد الذى فرض على أصحاب الحمامات قبول الفقراء مجانا لما فى ذلك من إجحاف بحقوقهم وخاصة بعد أن لمسنا ضيق مواردهم وكساد عملهم .

(الثالث) أن يلزم كل مستحم باستحضار كيس من الشعر أو الصوف لتدليك بشرته وكذلك يمنع استعمال بشاكير الحمام تجنبا للعدوى .

(الرابع) أن تقرر الحكومة إعانات لأصحاب الحمامات باعتبارها منشآت صحية عامة لاغنى للفقير عنها ، ونعتقد أن مد يد المعونة لأصحاب الحمامات القائمة ليصلحوا أمرها ويوفروا أسباب الصحة بها هو أيسر وأدعى إلى الاقتصاد من إنشاء حمامات جديدة بالوحدات الصحية التى تعمل الحكومة على تعميمها .

فإن عاونت الحكومة أصحاب الحمامات جاز لها أن تبعث إليهم بالفقراء يستحمون بغير أجر لقاء ما تبذل فى سبيلهم من مال .

م . محمد عبد الكريم